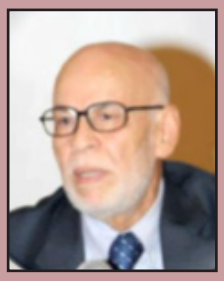

الدكتور سمير رمضَان الشَّيخ
مُستشارُ تطويرِ المصرفيّةِ الإسلاميّة

المصرفيّةُ الإسلاميّةُ ونهضَةُ الأُمّةِ
التجرِبةُ الإنمائيّةُ الألمانيّة

لقد أُتيح لي فُرصةُ العملِ مع الرُّوادِ الاوائلِ للمصرفيةِ الإسلاميةِ، منذُ بدايتِها، وعايشتُ وسجّلتُ وكتبتُ أحداثَ ميلادِ هذه الصناعةِ، ووقفتُ على جهادِهم، ومعاناتِهم في سبيلِ بناءِ أنموذجٍ للصناعةِ المصرفيةِ الإسلاميةِ، ومارستُ العملَ في هذه البنوكِ، وكانت هذه الصناعةُ محلاً للتقويمِ فى دراستي للماجستيرِ حيث كان موضوعُ البحثِ "مُشكلاتُ الأفرادِ في البنوكِ الإسلاميةِدراسةٌ ميدانيةٌ" وفي دراستي للدكتوراة وكان موضوعُ البحثِ "التطويرُ التنظيميُّ فى البنوكِ الإسلاميةِ" ورأيتُ من واجبي أنْ أنقلَ لزملائي من الخُبراءِ والباحثينَ وللشبابِ الباحثينَ، وللعاملينَ فى هذه المؤسَّساتِ، تجاربَ هؤلاءِ الرُّوادِ وهم كُثُرٌ والحمدُ للّه، وقد اخترتُ أن أبدأ بالمرحومِ الدكتورِ أحمد النجّارِثُمَّ أُتبعُ ذلك بباقي الرُّوادِ إنْ شاءَ اللّه تعالى. ورأيتُ أن تكونَ هذه السِّلسلةُ من المقالاتِ تحتَ عنوانِ "الجذورُ الفكريةُ للمصرفيةِ الإسلاميةِ".

سافرَ النجّارُ في عامِ ١٩٥٨ م إلى ألمانيا الغربيةِ لدراسةِ الدكتوراة في الاقتصادِ، وعندما وصلَ النجارُ إلى ألمانيا أُصيبَ بدهشةٍ أنه أُعيدَ بناءُ ألمانيا فى ١٤ سنةً بعد انتهاءِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ عامِ ١٩٤٥م.

لماذا أُصيبَ بدهشةٍ؛ لأنَّ الحُلفاءَ دمَّروا البنيةَ الأساسَ المصانعَ والبيوتَ وبلغ عددُ الوفياتِ في هذه الحربِ حوالَي ٥٥ مليون نسمة.

تساءلَ النجارُ لماذا لم نفعلْ مثلَهُم ونحنُ لم تُدمِّرنا الحربُ وعكفَ يدرسُ ويُعايشُ في هدوءِ أسبابَ نهضةِ ألمانيا الغربيةِ بعدَ الحربِ العالميةِ الثانيةِ ؛ ألمانيا كانت تعاني من الانكسارِ بسببِ اتّهامها بالنازيّةِ وأنّها مُدمِّرةٌ للحضارةِ الإنسانيةِ ومن ثَمَّ تمَّ تقسيمُ ألمانيا إلى شطرينِ غربيةٍ وشرقيةٍ، تخضعانِ لنظامَينِ اقتصاديَينِ مختلفَينِ أحدهما رأسماليٌّ، والثاني شيوعيٌّ.

دراسةُ النجارِ ركَّزتْ على المانيا الغربيةِ مُنبهراً بالإنجازاتِ ومُحبًّا للتجربةِ متفاعلا معها.(هذه نقطة مُهمَّةٌ فى البحثِ العلميّ أنْ يتفاعَلَ الباحثُ مع موضوعِ البحثِ).

أُولى مشاهداتِ النجارِ هي اعتناقُ الشعبِ الألمانيِّ لرؤيةٍ تقولُ " نحنُ الألمان من أفضلِ شعوبِ الأرضِ " أي مطلوبٌ منّا تحسينُ صورتنا وأنْ نُعيدَ اعترافَ العالَمِ بنا أنّنا بُناةُ حضارةٍ، وليس نازيّينَ، وأنّ تركيبَ القُوى العاملةِ كان (٧٥٪ نساء و٢٥٪ رجال) ؛ لأنّ الرجالَ إمّا قُتلوا في الحربِ أو يُعاقَبونَ فى السجونِ فكيف يتمُّ تحقيقُ الرؤيةِ؟ سجّلَ النجارُ عدداً من المشاهداتِ وتمثَّلَ العناصرَ الأساسَ والتي كانت سبباً في تحقيقِ التنميةِ في المانيا، نُشيرُ إليها بإيجازٍ فيما يلي:

بُنوكُ الادخارِ:

وهي بنوكٌ لتعبئةِ المُدخراتِ مهْما كان حجمُها من المواطنينَ، وهذه البنوكُ مُنتشرةٌ في كلِّ رُبوعِ المانيا، وكان يتساءلُ النجار، كيف لشعبٍ فقيرٍ خارجٍ من الحربِ يدّخرُ؟ إنّ الاقتصاديينَ يُعرِّفونَ الادخارَ بأنّه هو الفائضُ من الدخلِ بعدَ الاستهلاكِ، وهم أيِ الألمانُ ليسَ لديهم فائضٌ؛ لأنّهم خارجين من الحربِ، ويكتشفُ أنّ الألمانَ يدّخرونَ قيمةَ السلعةِ أوّلاً ثُمَّ يشترونَها،وعليه يُمكنُ تعريفُ الادخارِ بالنسبةِ للألمانِ "بأنّه تأجيلُ إنفاقٍ عاجلٍ إلى إنفاقٍ آجلٍ" – وهذا يوضِّحُ أنّه سُلوكُ أُمّةٍ راغبةٍ في البناءِ وتحقيقِ النهضةِ

الوعيُ المصرفيُّ:

أي أنّ سلوكَ كل المجتمعِ الألمانيِّ كلِّه هو إيداعُ أيّةِ مُدَّخراتٍ ولو قليلةً فى البنكِ، ووَجَدَ أنّ ٩٥٪ من الشعبِ الألماني له حساباتٌ فى البنكِ أي أنّهم مُدَّخرونَ، سواءٌ كان ذلك فى المُدنِ أو القُرى.

نظامُ معلوماتٍ: يحوي ثلاثَ عناصرِ معلوماتٍ "عن حجمِ المدّخراتِ وآجالِها "" معلوماتٍ عن "المشروعاتِ" المطلوبِ تمويلُها وفي أيِّ مجالٍ اقتصاديّ (زراعيّ ' صناعيّ' عقاريّ.الخ) بعدَ الحربِ اجتمعَ العلماءُ وحدّدوا المشروعاتِ المطلوبِ تمويلُها وفي أيّ مجالٍ اقتصاديّ؛ وذلك بوضعِ خرائطَ تُغطّي المانيا كلَّها المدنَ والقُرى، وظلَّ العلماءُ الالمانَ يُفاخرونَ ' بأنّ

الحربَ دمّرت المصانعَ والبُيوتَ ، ولكنْ لمْ تُدمِّر العقولَ، وكيف يتمُّ تمويلُ المشروعات وحجمُ المدّخرات لايفي بحاجات الخطّة وهُنا تمَّ وضْعُ" نظام معلومات للأولويات "أي ماهي المشروعاتُ التي تحتلُّ الأولويةَ الأولى، يقول النجارُ إنّ نظامَ الأولويات بدأ بالمشروعات التي تُحافظُ على كرامة وكبرياء المواطن الالماني كأولوية أولى؛ كي تُحقّقَ الاستقرارَ و الأمن الاجتماعيّ له؛ فبدأت الخطّةُ بتوفير المسكن، والمأكل، والتعليم ، والصّحة، والزواج ما أثّر ذلك على الأداء؟ وهذا ينقُلُنا إلى السببِ الآخرِ في تحقيق نهضة المانيا.

الولاءُ:

إنّ الشعبَ الالمانيّ يدينُ بالولاء ، والولاءُ ليس كلمات شعْر تُقالُ أو أغنيةٌ يتغنّى بها الشعبُ الالمانيُّ بلْ إنّ "الولاءَ هواتقانُ العمل" يقولُ الدكتورالنجارُ إنّه كان يُشاهدُ العاملَ الذي يقومُ بتنظيف الشارع كأنّه في محراب عبادة ويقولُ صحةُ المواطن الالمانيّ تبدأُ من هُنا من نظافة الشارع؛فنظافةُ المكان من نظافة السُّكان. كما هو معروفٌ واقعاً وحالاً. ولمّا كان يزورُ المدارسَ يجدُ المُدرّسَ يعملُ بنشاط وكفاءة عالية ويقولُ هؤلاء هُمْ عُلماءُ المستقبل ، العمالَ في المصانع ،الزُّرّاعَ في المَزارع ، كُلٌّ يتقنُ عملَهُ. أيّاً كانَ هذا العملُ. ويسألُ النجارُ و يتساءلُ لماذا يفعلُ ذلك؟، وماهو الدافعُ إليه؟، ويكتشفُ أنّ الشعبَ الألمانيَّ كلَّهُ مرتبطٌ "برؤية يجبُ أن تُحقَّقَ عمليّاً وليس أقوالاً" "نحنُ الالمان من أفضل شُعوب العالَم" فإذا صنعنا سيارةً ينبغي أن تكونَ أفضلَ سيارة في العالَم ، إذا كتبْنا" صُنعَ في ألمانيا " نكسَبُ ثقةَ العالَم.،و سأترك للقارئ الكريم ، الإجابةَ على هذا السؤال هل نجحتْ ألمانيا؟ كلُّ هذا يتمُّ مع وجود أكبر قاعدة عسكرية أمريكية على أرض المانيا حتّى اليوم.وهذا ينقُلُنا إلى السبب الأخير من وُجهة نظر المرحوم الدكتور النجّار.

مشروع المساعدات:

"مشروع مارشال":

بعدَ الحربِ العالمية الثانية تمَّ صياغةُ قانون مساعدات لإعادة بناء أوربا، ويقرِّرُ" قانونُ مارشال" إعانةً نقديةً لكُلِّ مُواطن. لقد أرسلَ النجّارُ رسالةً إلى الدكتور محمّد عبد الله العربيّ، أحَدِ رُوّاد العمل المصرفيّ الإسلاميّ، والذى بشّرَ بوجود نظام ماليٍّ إسلاميٍّ يحكي له فيها مشاهداته في المانيا والدكتورُ العربيُّ هو خالُ النجّار فماذا أجابُ الدكتورُ العربيُّ على النجّار.؟ موعدُنا هذا مع الرسالة التالية إن شاءَ الله تعالى.

(٢) الإسلامُ منهجٌ حضاريٌّ وتنمويٌّ

تناولنا في الجزء السابق الأسبابَ التي شكّلتْ نهضةً للأُمّة الالمانية بعدَ الحرب والمتمثّلة في وجود رؤية وإرادة لشعب فَقَدَ مُمتلَكاته ولمْ يفقدْ عقْلَهُ ، ثُمَّ آليةَ عمل تتضمَّنُ خمسةَ عناصر كانت سبباً في تحقيق التنمية وهي "بُنوكُ الادخار ، والوعيُ المصرفيُّ ، ونظامُ المعلومات ، والولاءُ ، وقانونُ مارشال ، " ووصلْنا إلى أنّ النجّارَ أرسلَ رسالةً الى أحد روّاد الفكر الاقتصاديِّ الإسلاميِّ " محمّد عبدالله العربيّ " يشرَحُ له فيها نتائجَ بحثه وأجابَ الدكتورُ العربيُّ برسالة يقولُ فيها:

لقد عشتُ بعَقلي وقلبي ومشاعري مع ماتفضّلتَ به ، وكأنني أعيشُ في العصور الخوالي مع النبيِّ مُحمّد صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وصحْبه الأطهار، هذا سلوكُ المُسلم الملتزم ، وهذا منهجُ الإسلام في البناء ، وإعمار الأرض ، وفق منهج الله وشريعته إنّ كُلّ ماأشرتَ إليه موجودٌ في شريعتنا؛ فالرؤيةُ قد بيّنها الله عزّ وجلَّ في كتابه العزيز منذُ أربعة عشرَ قرناً وهي قولُ الله عزّوجلّ في كتابه الكريم " كُنتُمْ خيرَ أُمَّة أخرجت للنّاس تَأمُرونَ بالمعروف وتَنهونَ عن المُنكر وتُؤمنونَ بالله"آية ١١٠آل عمران ويقولُ رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلَّمَ " الخيرُ في وفي أُمَّتي إلى يوم الدِّين " والخَيريَّةُ تتحقَّقُ بإقامة المسلمينَ للمنهج؛ ولمّا بَعُدَ المسلمونَ عن المنهج فقدوا الخيرية.

أمّا فيما يتعلَّقُ بالادخار؛ فقدْ وضع الإسلامُ منهجاً مُترابطاً للمال كسباً، وإنفاقاً، واستثماراً؛ وهو أن يكونَ الكسبُ من حلال والاعتدالُ في الإنفاق والبُعدُ عن الإسراف أمّا الفائضُ فيتمُّ استثمارُه.والنهيُ عن الاكتناز ، والنهيُ عن التعامُل في المُحرّمات ، والرِّبا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وبيَّنَ لنا الإسلامُ أنّ المالَ" كلُّ النِّعَم والطَّيبات " مالُ الله ونحنُ مُستخلَفونَ للعمل فيه وفقَ منهج الله ، وحضَّ الإسلامُ على أداء الزكاة في مصاريفها الشرعية "؛فقال تعالى " إنَّما الصَّدقاتُ للفُقراء والمساكين والعاملينَ عليها والمُؤلَّفة قُلوبُهُمْ وفي الرِّقاب والغارمينَ وفي سبيل الله وابن السَّبيل" آية ٦٠ التوبة

أمّا فيما يتعلّقُ بمنهج الأولويات فقدْ أرسلَ الدكتورُ العربيُ للدكتور أحمد النجّار كتابَ" المُوافقات" للإمام الشاطبيّ رحمهُ اللّه مُحدِّداً به الأولويات ومقاصدَ الشريعة الإسلامية ومُوضحاً له أنّ المقاصدَ الضرورية التي تُحقّقُ للناسَ المأكلَ والمسكنَ والزوجةَ والصحةَ؛ إنّه بتوفير ذلك تتحقّقُ المقاصدُ الكُليةُ الخمسةُ" حفظُ الدِّين والنفس والعقل والنسل والمال".

أمّا فيما يتعلّقُ "بالولاء أي إتقانَ العمل ؛ فالإسلامُ حريصٌ على الإتقانَ " إنَّ اللّه يُحبُّ منْ أحدكُمْ إذا عَمِلَ عملاً أنْ يُتقنَهُ " حديثٌ ضعيفٌ لكن يتمُّ الاستشهادُ به "؛ فإتقانُ العملِ عبادةٌ للّه وهو فرْض عين على كلِّ مُسلم ومُسلمة.

وكان لهذه الرسالة أثرٌ كبيرٌ في توجّه النجّار نحوَ الدراسة في المصادر الإسلامية وبصفة خاصة في فقه المعاملات، وفقه العبادات، والاخلاق

ماأثرُ هذه الدراسات على فكر وسلوك النجّار هذا ما سنتناوله إن شاء اللّه في المقالة التالية.

(٣) نهضةُ الأُمَّة

تناولنا في الأجزاء السابقة عناصرَ منهج نهضة الأمّة الألمانية، ثُمّ عرّجنا على التنمية في الفكر الاقتصاديِّ الإسلاميِّ.

وقد تأثّرَ فكرُ النجار بالمنهجَين معاً، وأدركَ أنّ منهجَ التنمية له جذورٌ كامنةٌ في الفكر الاقتصاديِّ الإسلاميِّ، كما أدركَ، وحلمَ أنّه من الممكن إحداثُ هذه التنمية في دُولنا الإسلامية والعربية، وشأنُ كلِّ باحث أو مُغترب، يحلُمُ بأن يكونَ في مجتمعه ما يراهُ من تقدم وتنمية في الخارج وبدأ في إعداد خطّة العمل وهو موجودٌ في ألمانيا، وأبرمَ اتفاقات وحصل على دعم مُسبَق من الألمان قبلَ عودته إلى مصرَ.

إنّ نَظرةً فاحصةً متأنيةً في فكر النجار، نجدُ أنّه لم يكُن الهدفُ من المصرفية الإسلامية إنشاءُ بنك إسلاميٍّ فحسب، أو تطويرُ منتجَات، أو إنشاءُ فروع إسلامية تابعة لبنك تقليديٍّ؛ وإنّما كان يحلُمُ ببناء نموذج في إحدى المدن، تنتقلُ إلى مدينة أُخرى، وهكذا بهدف تحقيق نهضة الأُمّة أُسوةً بالتجربة الإنمائية الألمانية.

وعاد النجارُ من ألمانيا في عام ١٩٦٢م، واصطدمَ بالفيل الأبيض (البيروقراطية)، ولم ييأسْ، وكان يؤمنُ أنّه في نهاية الطريق سيحصلُ على شمعة مُضيئة، وبالفعل نجحَ في إقناع وزير الاقتصاد المصريِّ بإنشاء بنك ادخار – "أسوةً" ببنوك الادخار في ألمانيا – في مدينة ميت غمر على النيل في وسط الدلتا عام ١٩٦٣م، وأُرسلَ فريقٌ من الموظّفينَ ليتمَّ تدريبُهم في ألمانيا، وفقاً للاتفاق المسبَق مع للألمان.

وبعدَ الانتهاء من بناء البنك، انتظرَ النجارُ المودعينَ فلمْ يأت أحدٌ للبنك لإيداع أيّة مُدَّخرات، واكتشفَ أنّ عليه أن يبدأَ من الصِّفر؛ لأنّ المجتمعَ الالماني كلَّه في ألمانيا كان معتنقاً (رؤيةً) واجبةَ التحقيق، وهُنا في مدينة ميت غمر لم تكُن هناك رؤيةٌ أو حلمٌ يرتبطُ به الناسُ في المدينة، وأدركَ أنه، يجبُ عليه أن يصنعَ مع أهل المدينة الرؤيةَ أو الحلمَ؛ لأنة غيرُ موجود أساساً، وبدأ في الاجتماعات مع فريق العمل، وأهل المدينة على المقاهي، وفي المدارس؛ لتنمية الوعي بأهمية الادخار لمصلحة المدينة، وأبناء المدينة، وأنّ المدَّخرات سوف تُستثمَرُ في المدينة ليحصلَ أبناءُ المدينة على فرص عمل، وبدأ في تشجيع المواطنينَ على تبنّي أفكار إنشاء مشروعات مُتناهية الصِّغر، ويدعمُها البنكُ، أي تكوينُ طبقة المنتجينَ و المبدعينَ، من أهل القرية.وأسفرت اللقاءاتُ والتوعيةُ بالمدارس على أهميَّة المدَّخرات، وتشجيع الطلاب عليها وكانت الخُطى بطيئةً؛ولكنّ وجودَ الأمل والحلم بمستقبل أفضل كانت الوَقودَ الذى يعيشُ عليه فريقُ العمل. أخيراً بدأت المدَّخراتُ تتدفَّقُ على البنك، وبدأ إنشاءُ المشروعات داخلَ المدينة والقُرى بها، وتمَّ التوسُّعُ في إنشاء مجموعة من الفروع في مختلف القُرى المحيطة بميت غمر، وأصبحتْ بنوكُ الادخار ظاهرةً تنمويةً في المدينة، ولفتت النظرَ، وقام (آر- كي – ريدي) مساعدُ الأمين العامّ للأُمم المتّحدة تقييمَ التجربة وكتبَ كتاباً قال فيه: أنّ تجربة بنوك الادخار في مدينة ميت غمر تُمثّلُ أفضلَ تجربة تنموية في ريف مصرَ.

وكذلك صاحَبَ بدءَ التطبيق وعيٌّ فكريٌّ إسلاميٌّ واتخذ مجمعُ البحوث الإسلامية بمصرَ قراراً بإجماع العلماء على أنّ الفائدةَ المصرفيةَ من الرِّبا المحرَّم لاتُجيزُها حاجةٌ ولا ضرورةٌ. ماأثرُ هذه الفتوى على أداء بنوك الادخار؟ وكيف يتمُّ وقفُ التعامل بسعر الفائدة؟ وإحلالُ المشاركة محلَّ التعامل الرِّبويِّ؟ هذا ما سنتناوله في الجزء التالي إن شاءَ اللّه تعالى.